

المشيخة البجاية في العهد الحفصي

-قراءة في الصورة الخلقية والأدبية-

الباحث: بركة مسعود- أستاذ مساعد أ-

جامعة سطيف 2

messaoudbri@yahoo.fr

الملخص:

عرفت بجاية خلال الفترة الحفصية حراكا علميا متميزا، بفضل ثلة من الفقهاء ومشيخة العلم، أسهموا بشكل كبير في إنتاج ونقل المعرفة، وعملوا على نشر العلم الشرعي بين الناس ووجهوهم إلى أخلاق الإسلام، فهل جسدت أفكارهم في واقعهم الأخلاقي؟ وهل تمثلت عقائدهم في حياتهم اليومية؟ وما هي نتائج ذلك على أهل بجاية تربويا وتعليميا؟

الكلمات المفتاحية: الزهد - العبادة - بجاية - الأخلاق.

Abstract

Bejaia had known during hafesid period between 7-9 Hedjra / 13/15 century of birth, a significant scientific movement, thanks to the elite group of scholars a sheikhdome of science, those who contributed to the production and transportation of scientific knowledge. They worked on spreading the legal science among peoples and guiding them to the ethics of Islam, did they represent their ideas in their moral reality? Did they represent their beliefs in their daily lives? And what were the consequences of this on Bejaia's people morally and educationally?

Asceticism- Diacritics- Bejaia- Ethics

لا غرو بالقول أن غالبية النصوص التراثية الحاثثة على حسن الخلق والتأدب مع الخالق والخلق قرنت متونها بالعلماء والفقهاء أولى الناس تمسكا بتلك القيم¹، ونموذج فاعل وسط المجتمع، وهو ما يستشف من خلال

¹ كقوله عز وجل في مدح رسول الله -صلى الله عليه وسلم- "وَأِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ" سورة القلم الآية 4، وقول النبي -صلى الله عليه وسلم- "إن من خياركم أحاسنكم أخلاقا"، أخرجه البخاري في صحيحه رقم (3559)، طبعة الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، 2006.

والصفات التي توشح مقاماتهم العلمية والأخلاقية السامية، يقدمون النموذج المثالي للناس داعيين إياهم إلى التحلي بمحاسن الأخلاق منطلقين من أنفسهم، فالعالم حامل لرسالة سامية وجب عليه النفع والانتفاع والعمل بما يعلم وأن يكون أسوة للناس على حد قول أبو حامد الغزالي: "لا يكذب قوله فعلة لأن العلم يدرك بالبصائر والعمل يدرك بالأبصار وأربا بالأبصار أكثر، فإذا خالف العمل العلم منع الرشد ومن تناول شيئاً وقال للناس لا تتناولوه فإنه سم مهلك"⁽¹⁾.

وصفتهم المصادر التاريخية بشتى ألوانها بميزات تليق بمقاماتهم العلمية والأخلاقية السامية، وهي صفات أهل العلم عموماً يشار إليهم بالاستقامة والتدين والعفاف، نذروا حياتهم في طلب العلم والمعرفة منكبين على النهل من مصادرها المتعددة ومشاربها المتنوعة واصلوا تطبيقها في واقعهم معتكفين على أداء رسالتهم الربانية، رغم أن بعض الباحثين يرى أن تلك المؤلفات التي أطنبت في تمجيدهم وذكر محاسنهم سكتت عن أوصاف فئة منهم تدمهم رغم أنها نتاج ذات البيئة، موعزا سبب الصمت المطبق على تلك الفئة التي شذت عن القاعدة في أن المجتمع كان في مرحلة انقياد للقيم الأخلاقية فجاء تمجيد هؤلاء والسكوت عن الآخرين من باب استعادة المجتمع لعافيته والامتنال بالأسوة التي صورتها تلك المصادر⁽²⁾. وهذا من السنن الكونية أن نجد طبائع فاسدة وأنفس مريضة تباشر المفاصد وتسيء لسمعة العلماء كما قال ابن عبد ربه الأندلسي :

ألا إنما الدنيا نضارة أيكمة *** إذا أخضر منها جانب جف جانب⁽³⁾

لذلك ألفت الكثير من التصانيف في أخلاق العلماء، تذكيراً بمحاسنهم وتنبيهاً لمساوئ بعضهم ومن أهم تلك التصانيف ما كتبه الخرائطي (ت227هـ/840م)⁽⁴⁾، علماً أن الإجماع الواقع يتجه نحو مدح أخلاقهم وفضائلهم من غالبية المجتمع، خاصة وأنهم يخلقون دعماً معنوياً يسهم في جبر الخلل الاجتماعي والأخلاقي الذي يصيب المجتمع.

أنجبت بجاية المدينة الجزائرية في العصر الوسيط الكثير من النخب العاملة خلال الفترة الحفصية من القرن 7-9هـ/13-15م، وقد ترجم الغبريني فقيهه وقاضي بجاية⁽⁵⁾ للكثير من مشيختها في مؤلفه الموسوم بـ"عنوان الدراية

(1) إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، 1982، ج1، ص 58.

(2) عمر بلبشير: جوانب من الحياة الاجتماعية والإقتصادية والفكرية في المغربين الأوسط والأقصى (6-9هـ/12-15م) من خلال كتاب المعيار للونشريسي، دكتوراة في التاريخ الإسلامي، جامعة وهران، 1430-1431هـ/2009-2010م، ص 117.

(3) الديوان: شرح العبري، دار المعرفة، بيروت، ج4، ص14.

(4) أبو بكر محمد بن جعفر (الخرائطي): مكارم الأخلاق ومعانيها ومحمود طرائقها ومريضها، تح: مصطفى الأغا، المطبعة السلفية، القاهرة، 1350هـ، وله كذلك كتاب: مساوئ الأخلاق وطرائق مكروهاها، مؤسسة الكتاب الثقافية، ط1، 1993. وكتب كذلك: أبو بكر الآجري (ت360هـ/970م): أخلاق العلماء، تح: فاروق حمادة، ط2، دار الثقافة، الدار البيضاء، 1984.

(5) هو أبو العباس أحمد بن محمد الغبريني نسبة إلى بني غبرين أو بني غبري بضواحي بجاية، تولى القضاء ببعض أكوار بجاية ثم عين قاضي قضائهما، اغتيل سنة 704هـ/1304م بعد محنة تعرض لها، أنظر ترجمته في: النباهي: المرقبة العليا فيمن استحق القضاء والفتيا، المكتب التجاري، بيروت، دت،

فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية"⁽¹⁾، أتى على 108 شخصية علمية من فقهاء وأدباء وشعراء وأطباء، تناول واقعهم الاجتماعي وصفاتهم العلمية والخلقية، والمصدر التراجمي والفهرسي شاهدا على الحركة العلمية التي عرفتها بجاية خلال القرن 7/13م.

وبعد القراءة لجملة من المصادر حول الموضوع استشعرت معرفيا بناء تساؤلا رئيسيا مضمونه هو: هل حسدت المشيخة العلمية البجائية تنظيراتها العقدية والعلمية في سلوكياتها وتعاملاتها اليومية؟ أم بقيت مجرد أفكار مثالية خيالية لم تترجم في واقعها؟ وهل بقيت حبيسة نُخبوتها أم عاشت مع فئات الظل المختلفة من خلال نسج علاقات اجتماعية محضة؟

رصدت لنا المصادر بأطيافها المتلونة تلك الخصال والصفات التي تميزت بها المشيخة البجائية، ككتب التراجم والمناقب وكتب الرحلة والجغرافية التي تعد شاهد عيان على الحالة التي عاشتها بجاية خلال الفترة الحفصية، خاصة وأنها كتبت بأقلام زائرة، لم ترتبط كتاباتها بمصالح أو تحالفات مما يضيف على النص الكثير من المصدقية، فقد زارها الرحالة البلوي (حيا 720هـ/1312م) والذي أعجب بأخلاق علمائها وأنشد فيهم قائلا:

لهم هم كما شمخت جبال **** وأخلاق كما هشت بطاح

ترى بهم النجوم ولا ظلام **** وأوضح النهار ولا صباح⁽²⁾

يفهم من بيتي البلوي أنهم مثلوا النموذج المثالي الذي دعا إليه الإسلام، إذ لا يمكنهم إيصال مضمون وفحوى العلوم ومقاصدها إذا لم يتمثلوها عقيدة وأخلاقا، فقد اعترف الغبريني باستفادته من السمو الأخلاقي والعملية للفقهاء ابن الغماز (ت 693هـ/1294م)⁽³⁾ عند لقائه بتونس فقال: "استفدت من أخلاقه ومن الإطلاع على أحكامه بحضوره مجلسه"⁽⁴⁾، وقد أتت النصوص التراجمية والمناقبية مركزة على تلك الحثيات، مضيئة نوعا من الهالة عليهم ومبالغة في تصويرهم في بعض الأحيان، لحدّ طبع فيه النص المناقبي بالأسطورية والخرافية في رسم صورة الصوفي العالم أو الولي الشيخ في الذهنية البجائية، قدمته على أنه النموذج القدوة فكريا وسلوكيا، هدف إلى كسب قلوب الناس من خلال صور الإخاء وسبل الخير المتعددة وعبر تواصله الاجتماعي، وقد وقفت على فقهاء تعدت خصالهم في الترجمة الواحدة أكثر من عشرة صفات، فقد وشح ابن قنفذ القسنطيني عند ترجمته

وكذلك: الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، مكتبة الثقافة الدينية، ط1، القاهرة، ج1، وابن مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الفكر، دمشق، دت.

(1) تحقيق: رابع بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.

(2) تاج المرفق في تحلية علماء المشرق، تح: الحسن السائح، اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي، المغرب، ج1، ص10.

(3) هو أبو العباس أحمد بن محمد بن الحسن الغماز البنسي ولي قضاء بجاية وخطابة جامعها الأعظم، استدعاه السلطان المستنصر الحفصي لتونس وولاه قضاء الحاضرة، أنظر ترجمته في عنوان الدراية، ص 129-131.

(4) عنوان الدراية، ص 130.

للفقيه البجائي محمد بن يحيى الباهلي (ت 744هـ/1343م) باثنتي عشرة حصلة علمية وخلقية وتربوية⁽¹⁾، فهو القائم على شؤون الوعظ والإرشاد في خطبه وإمامته للناس، وهو الناجح في العملية التعليمية من خلال دروسه وحلقات العلم التي يديرها بمساجد بجاية، وهو المتصدر للفتوى وإمارة الغموض عن تساؤلات البجائيين في دينهم، وهو القاضي الذي يفصل في الخصومات ويصلح ذات البين ويقر العدل والحق بين الناس وينصف المظلومين، وهو المتعبد الورع التقي الزاهد العابد الذي يخاف ربه في السر والعلن حتى تفيض عيناه من الدمع⁽²⁾، إلا أن بعضهم لم يكن يجذب الثناء أو الشكر جراء ما يقدمه للمجتمع كأبي محمد عبد الحق بن ربيع (ت 675هـ/1276م)⁽³⁾ الذي كان يكره الثناء على أفعاله ويريدها أن تكون لوجه الله ويرى أن حسن الخلق من شيم رسول الله - صلى الله عليه وسلم-⁽⁴⁾.

ولفهم الموضوع بشكل جلي وفي محاولة لحصر تلك الأخلاق الأدبية الاعتبارية رصدت بعض العينات من تلك المشيخة، بالتعرض لصفاتهم وميزاتهم الخلقية من مصادر متنوعة وربطتها بخصالهم العلمية لأبرز مدى تجسيد علمهم في واقعهم الأخلاقي من خلال الجدول التالي :

المصدر	وضعه الاجتماعي	أخلاقه	خصاله وأوصافه العلمية	الشيخ
الإحاطة 325-324/3	//	قليل التصنع + منقبض عن الناس + طريف في الخير والسلامة	//	منصور بن علي الزواوي (ت 770هـ/1369م)
الغريبي/252	//	الخلال الحسان + أملح الناس + دعابة مستحسنة	//	عبد الحق بن الربيع (ت 675هـ/1276م)
كفاية المحتاج/88	//	كرم الطبع + حسن العشرة + لين الجانب + بذل البشر والمعروف	//	محمد بن حسن البرجي
الاحاطة	توفي قاضيا	كان يتصدق بالأضحية	//	عبد الحكيم بن الحسين

(1) قال عنه: "الشيخ الإمام العالم المحقق المدرس المفتي الصالح الشهير قاضي الجماعة ببجاية... شهر الذكر رفيع القدر غزير الدمع" أنظرها في: أنس الفقير وعز الحفير، تح: أبو سهل نجاح عوض سليمان، دار المقطم للنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 2002، ص 94.

(2) أنظر ترجمته كاملة في: المصدر نفسه، ص 95-102.

(3) أصله من مدينة أبدة الأندلسية ولد ببجاية وقرأ بها، تولى نيابة القضاء وتصدر للتدريس، تنظر ترجمته كاملة في: عنوان الدراية، ص 85-90.

(4) وكان عندما يمدح يردد قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم- "أول ما يوضع في الميزان الخلق الحسن ومن لم يكن عنده أول ما يوضع في الميزان لم يكن عنده غيره" أنظر: عنوان الدراية، ص 86.

ونص الحديث كاملا في رواية عن أبي الدرداء "ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق، وإن صاحب حسن الخلق ليلبغ به درجة صاحب الصوم والصلاة". أنظره في: الإمام أحمد: المسند، رقم (27532)، تح: شعيب الأرنؤوط وآخرون، دار الرسالة، ط2، 1420هـ. وأبو داود: السنن رقم (2003)، تح: بشار عواد معروف، دار العرب، بيروت، 1998. وفي الترمذي رقم (4799)، تح: محي الدين عبد الحميد، طبعة دار الفكر.

.574/3				(ت723/هـ1323م)
الغبريني/227.	//	زاهد+ متقلل من الدنيا+ متعفف+ مقتبض	//	ابن أساطير (ت 670هـ/1281م)
الغبريني/86.	دعابة مستحسنة ومستظرفة وأملح الناس نوادر على طريقته	من فضلاء أهل العلم والتخلق+ يثنى عليه بحسن الخلق+ إذا فعل معروفًا لا يذكره	كثير الإستدلال بحديث المصطفى- صلى الله عليه وسلم-	عبد الحق الأنصاري (ت675هـ/1276م)
الغبريني/286.	//	أحسن الناس خلقًا، لنا مع طلبته	//	ابن محرز (ت655هـ/1257م)
الغبريني/85- .91	//	ناصحًا مجداً مجتهداً، عفاف ونسك تخلى عن الناس إلى أن توفي	المقرب المخلص المتقن المجود	أحمد بن خضر الشاطبي(ت684هـ/1276م)
الغبريني/ ص73..	لم يكن عنده شيء	أحسن الناس خلقًا وأطيبهم نفسًا	//	أحمد بن خالد المالقي
الغبريني/194..	//	اعتزل الناس وأقبل على العبادة والزهد.. بلغ في الزهد والورع مبلغًا فاضلاً..	من أهل العلم ..مستبحرًا متفنًا علماً بالفقه وأصوله	أبو الحسن بن فتوح النفري(ت642هـ/1244م)
الغبريني/262.	مختصرًا في لباسه ومشيته	متقللاً من الدنيا..مقبلاً على الآخرة.	أحد الأخيار المجتهدين والأكابر المفتيين	داود بن مطهر الوجهايي
أنس الفقير/96.	//	كثير التواضع حسن الملاقة	العلم والفصاحة والديانة	محمد بن يحيى الباهلي المسفر(ت744هـ/1343م)
الغبريني/100	ما ادخر شيئاً ، لم يكن عنده شيء	من أحسن الناس خلقًا وأطيبهم نفسًا	الفقيه الأصولي المشارك في الطب والطبيعيات	أحمد بن خالد المالقي(ت660هـ/1262م)
الغبريني/103	//	كانت له نفس طيبة وأخلاق حسنة	الأستاذ الأديب النحوي اللغوي	يوسف بن سعيد الجزائري(ق7هـ/13م)
الغبريني/176- .177	يملاً إناء الماء لشربه ويسوقه على كاهله	بلغ من الزهد والورع مبلغاً فاضلاً	الفقيه العالم المجيد، مستبحرًا متفنًا عالماً بالفقه وأصوله	عبيد الله بن محمد النفري(ت642هـ/642م)
الغبريني/107	//	له خلق حسن ونية صالحة وطوية سالمة	الفقيه الخطيب النحوي	محمد بن صالح الشاطبي(ت699هـ/1297م)
الغبريني/116.	//	من مشايخ التقوى والورع منزه عن الميل والطمع، له علم وصلاح مكتمل	أحد أعلام الدين	أحمد بن عجلان (ت675هـ/1276م)

التعليق والتحليل:

من خلال الجدول وقراءة تراجم مشيخة العلم البجائية أحاول رصد وتحليل بعض خصائصهم الخلقية والتي تحدثت عنها المصادر بألوانها المتنوعة على سبيل الحصر لا الشمول، لأنها كثيرة فاخترت البارز منها والذي وقع عليه الإجماع من خلال النصوص المصدرية التي توفرت في هذا الشق.

يتبين للوهلة الأولى من الجدول أن هناك إجماع على حسن الخلق والتفرد في الخصال الحسنة، فقد تميز بعض الفقهاء بصفات معينة بحد ذاتها تنبأ عن حسن السريرة وصفاء المعدن، فقد جمع الفقيه أحمد بن خالد المالقي (ت حوالي 660 هـ/1262م) بين حسن الخلق وطيبة النفس، تلك الطيبة قرأت في سلوكاته اليومية فقد أثر أنه لم يكن يملك شيئاً من الدنيا رغم حاجته لأمر معاشه اليومي لأن حياؤه منعه سؤال الناس⁽¹⁾، ولعل نياتهم الصالحة وسرائرهم الطيبة كانت وراء صفاتهم الخلقية الحسنة، فبقدر النيات يكون الجزاء وتكون الإستجابة، يشير الغبريني لذلك أثناء ترجمته للفقيه محمد بن صالح الكناني (ت 699 هـ/1297م)، حين كشف لنا عن سيرته الخلقية الحسنة ويخبرنا عن النهاية المساوية لكل من يعترضه بسوء⁽²⁾، وهي إشارة إلى فكرة استجابة الدعاء وبركة الفقهاء والصالحين ومصير كل من تسول له نفسه التعرض لهؤلاء، ويمكنني أن أجمل تلك الصفات من خلال الجدول السابق وتراجهم الموزعة في ألوان مصدرية كثيرة فيما يلي:

1/ التواضع:

يقع شبه إجماع من خلال النصوص المصدرية على خلق التواضع الذي كرسه النخب العاملة في تعاملاتها اليومية مع كل الفئات الاجتماعية دون استثناء، في محاولة للتأكيد على التوافق الحاصل بين ما يعتقدونه ويدعون له وبين ما يمارسونه من سلوكيات، وتتضح صور تواضعهم من خلال تواصلهم مع الناس وقضاء حوائجهم والوقوف على انشغالهم بأنفسهم ومشاركتهم أفراحهم وأتراحهم، يواسونهم في مصائبهم ويشدون على أيديهم في الأزمات والضوائق، لا يميزون بين غني وفقير أو صغير وكبير، تنوعت مظاهر التواضع معهم منها الجلوس في مآدبهم لتناول الطعام رفقتهم، حتى أنهم يدعون الخدم لمشاركتهم موائدهم، يقضون حوائجهم بأنفسهم لا يعتمدون على غيرهم رغم أن الناس كانوا طوع ورهن إشارتهم، فعلى الرغم من محاولة البجائيين خدمة أبو عبد الله الشريف (ق 7 هـ/13م) لشرفه وفضله العلمي وأخلاقه إلا أنه كان يتحاشى الناس ورفض كل الخدمات التي عرضت عليه، فكان يباشر أشغاله بنفسه ويدفع الغرائم وضريبة دخول سوق الصوافيين ببجاية للبيع والشراء كبقية

(1) تنظر سيرته في: عنوان الدراية، ص 100.

(2) المصدر نفسه، ص 107.

الناس⁽¹⁾، طمعا في مرضاة الله وخوفا من سريان الغرور إلى قلبه، وهو ديدن الفقيه عمر بن عزون السلمي ق7/13هـم) الذي كان يمتلك حانوتا بسوق قيسارية للمتاجرة على الرغم من "تمكن علمه وبراعة فهمه"⁽²⁾، مما ينم أنهم كانوا يعيشون في أحضان مجتمعهم فلم يتمايزوا عليه، ورغم ما كان يصلهم من طلبات لخدمتهم ومساعدتهم إلا أنهم لم يستغلوا عامة الناس وأبانوا عن شيم التواضع والعيش معهم ببساطة دون تكلف أو خيلاء، حتى أن ناصر الدين المشدالي (ت731هـ/1330م)⁽³⁾ على تقواه وعلمه طلب من أحد خدام الشيخ المسفر أن يدعو له فدعا له قائلا "أسأل الله أن ينفعنا بك فقال ناصر الدين آمين وكررها وهو يبكي"⁽⁴⁾، ذاك التواضع الذي تجلّى في سيرتهم طابت أنفسهم به وحسنت سرائرهم فطُبع على أخلاقهم⁽⁵⁾، والمؤكد أن العلم الذي حملوه سبب حسن الخلق المتحذر في أنفسهم فكرس فيهم شيم الخضوع والخشوع ومن ثم التواضع، وهي الصفات التي أشارت إليها غالبية الألوان المصدرية.

تقدم لنا المصادر التي ترجمت للفقيه محمد بن يحيى الباهلي (ت744هـ/1343م) كنموذج للشخصية العلمية المتواضعة حتى مع العامة، فقد وقع الإجماع عند كل الذين ترجموا له أن الفقيه على علو قدره العلمي ومكانته الدينية كان شديد التواضع يلاقي الناس بالكلمة الطيبة والأسلوب الحسن حتى أنهم يتمنون لقائه ويفخرون بذلك كما قال ابن قنفذ "وهو في الجملة ممن يحصل الفخر بلقائه وصحبته وينال الخير بدعائه وبركته"⁽⁶⁾، وإذا قرأنا بتأن الرسالة التي بعثها لأبي يعقوب يوسف الملاري (ت717هـ/1317م)⁽⁷⁾، تتضح صور الإنكسار والتواضع في كلماته "من العبد المقر المفتقر في ورده وصدرة المنكسر قلبه بتفريطه فيما مر من عمره"⁽⁸⁾، دلالة على خضوعه لله و تأنيبه لنفسه على قلة عبادته بالنظر لنعم الله عليه نادما على ما فات من حياته وتائباً عن ذنوبه عائدا إلى ربه رغم ما جاء في ترجمته من أنه صاحب ديانة وفصاحة وأمانة، ثم يعرج بالحديث عن نفسه

(1) غير مهال بالناس ولا بالمدح الذي يصل أسماعه ولا بتذكيره أنه من أهل البيت و الواجب أن يكرم وأن لا يباشر العمل بنفسه إلا أنه أبي ورفض كل العروض وتحمل مشاق الحياة بنفسه، أنظر ترجمته كاملة في: عنوان الدراية، ص177-179.

(2) عنوان الدراية، ص218.

(3) فقيه بجاية وعالمها ومفتيها ارتحل إلى بلاد المشرق للدراسة لقي عز الدين بن عبد السلام وشرف الدين السبكي وشمس الدين الأصفهاني وغيرهم قرأ وحصل الفقه وأصول الدين، وهو أول من أدخل مختصر ابن الحاجب إلى بلاد المغرب، أنظره في: المصدر نفسه، ص200-201، وعند: ابن خلدون: المقدمة.

(4) ابن قنفذ: أنس الفقير وعز الحقير، ص95.

(5) يروي الغبريني عن شيخه الفقيه الأصولي أبو العباس أحمد بن خالد أنه كان من أحسن الناس خلقا وأطيبهم نفسا، وفي نفس الوقت عالما خاشعا وخاضعا وهي السمة التي ميزت معظم الفقهاء البجائيين، ينظر: المصدر نفسه، ص100.

(6) أنس الفقير، ص96.

(7) الفقيه الصوفي صاحب زاوية ملارة التابعة اليوم لدائرة تسدان حدادة والبعيدة عن فرجيوة بحوالي 18 كم، وقد زرت بقايا الزاوية وضريح أبي يعقوب ووالده، وهو جد ابن قنفذ من أمه، أنظر ترجمته في: أنس الفقير وعز الحقير في مواضع متناثرة من الكتاب.

(8) المصدر نفسه، ص101.

في شكل مناجاة الله بأن يلطف به وينجيه يوم القيامة، بكلام ينم عن الذل أمام رب العزة والخشوع بين يديه والتبتل له فيقول "لطف الله به وأفاض علينا من بركات أهل الخير في حاله ومنقلبه بمنه وفضله"⁽¹⁾.

2/ صلة الرحم وإكرام الضيف:

وهي شيمة المسلمين جميعا لكن تميزت بها طبقة الفقهاء لأنها تمثل التيار القدوة في المجتمع، فصلة الرحم والقربة والإحسان إلى الأهل حث عليها الإسلام وأثنى على صاحبها، علما أن التنظيم القبلي الذي كان يسود بجاية وباديتها من أهدافه تتمين فكرة الأواصر والصلوات الاجتماعية للقبيلة، وهي برأيي أوثق من الحاضرة لأنها تقوم على العصبية الواحدة التي تربطها رابطة الأصل الإثني فزادها الإسلام ترسيخا، فشيوخ زاوية كانوا يتصدقون على أهلهم ويزورهم في المناسبات ويعودونهم في المرض ويلبون دعواتهم في الأفراح ويقدرونهم بما تقدير خاصة من أكلوا طعامه ودخلوا داره⁽²⁾.

أما إكرام الضيف فبالإحسان إليه وإطعامه من خير المأكل والمشرب، وهي خصلة العلماء ومن قبلهم الأنبياء والصالحين، لم يتفننوا في صناعة الضيافة بل وافقوا مقولة الجود من الموجود، وعرف عن أسرهم الكرم فقال الغبريني عن الفقيه عبد الله بن يوسف (ت640هـ/1242م) أن "بيتهم بالجملة بيت كريم"⁽³⁾، مما يوحي بتأصل فكرة الكرم في تاريخية العائلة وتربيتهم عليه.

تجلى الكرم في صورته المثالية عند الفقهاء المتصوفة، فرغم الفقر الذي عاشه أبو مدين شعيب (594هـ/1198م) وزهده في الدنيا وقناعاته الراسخة فيما يفعله وحاجته وضعفه إلا أنه كما صور ابن قنفذ لم يترك ابن بلده الذي زاره في بيته دون طيبات الأرض، فباع ما عنده من متاع واشترى حاجات للضيف وأكرمه أما إكرام⁽⁴⁾، نستشف من ذلك أن بيع المتصوف لمستلزمات الدار لإكرام الضيف هي بذاتها زهد فيما عنده وإلا فإنها تفسر شغف بالدنيا وطمع في الاستزادة منها وبخل للزوار والأحباب، بل أن أبا مدين بلغ جوده وكرمه بضيوفه إلى الإغداق بأفضل وأطيب ما عنده من خيرات فيؤثر عنه ذبحه لكبش لزواره، والراجح أنه تأثر بأخلاق الشيخ أبي يعزى حتى في طبيعة ونوعية الأكل المقدم للضيف، وفي كرمه وحسن استقبالهم⁽⁵⁾، فتقشفهم طبقوه على أنفسهم ولم يسر على ضيوفهم فأكرموا وأعطوا وأغدقوا بقدر ما استطاعوا ولم ييخلوا.

(1) أنس الفقير، ص 101.

(2) أبو يعلى الزواوي: تاريخ زاوية، ص 46.

(3) عنوان الدراية، ص 216.

(4) أنس الفقير، ص 91.

(5) ففي ترجمة ابن قنفذ للشيخ أبي يعزى يذكر أن كان يأكل هذب الدفلى أي ورقها وكان يكرم ضيافه باللحم والعسل، يراجع: أنس الفقير، ص 57.

يتبين من سيرة أبي يعقوب يوسف الملاري أنه أدرك مفهوم التكامل الأخلاقي عند المتصوف، فكرس اجتماعيته مع الناس جميعا، حيث كان يفشي عليهم السلام ويتصدق ويطعم من يزوره ويكرم ضيوفه ليعود نفسه على الجود ويبعدها عن الشح المطاع، وجرد عبادته لله وحده في السر تطويعا وتأديبا لنفسه من الرياء والكبر والخيلاء بتقواه، فيؤثر عنه أنه كان يقوم بالليل والناس نيام⁽¹⁾، وهي من علامات صدق النية.

3/ المشاركة الخيرية رغم الانقباض:

البعض لم يكن يخالط الناس وكان منقطعا عنهم ولعل ذلك يفسر بالحرص على الخوف من الوقوع في الفتن والمعاصي، أو يفهم أنها حالات شاذة فهمت الشرع من منظور "فليسعك بيتك"، فقد ذكر صاحب عنوان الدراية أن الفقيه هلال بن يونس الغبريني(ق7هـ/13م) الذي وصفه بالعبادة والتقوى كان لا يخالط الناس منقطعا عنهم مهتما بحاله وشؤون أرضه، وبالمقابل عرف عنه الجود والكرم والصدقة⁽²⁾، مما يوحي لنا أن الانقطاع سببه مخافة الوقوع في المحذورات والمعاصي التي تنجر عن كثرة مخالطة العامة، ولعل الانشغال بالآخرة وتطبيق الدنيا عقيدة ترسخت في أذهانهم فلم يعودوا يأبجون بدنيا الناس لأنها تشغلهم، فقاضي بجاية أبو محمد عبد الله بن يوسف(ت640هـ/1242م) كان معروفا بانزواته عن الناس ورفض الخوض معهم في نقاشات الدنيا ومشاغلتها⁽³⁾، ولعل كبر السن وصعوبة الحركة اضطرتهم للعود بمنزلهم فقللوا من مخالطة الناس والاجتماع بهم للاستماع لمشاغلتهم أو لتوعيتهم وتعليمهم، حيث تخلى الفقيه أحمد بن خضر الشاطبي(ت674هـ/1276م) عن الناس حتى توفي⁽⁴⁾، وكذلك فعل الفقيه علي بن أبي نصر (ت652هـ/1254م) الذي اعتزل الناس وانقطع عنهم في آخر عمره⁽⁵⁾.

كانت علاقاتهم مع البجائيين تدرج في إطار ما هو شرعي في السؤال عن فتوى أو استشارة أو إصلاح ذات البين أو في أمور دنيوية أخرى، فقد أثار عن الفقيه أبو الحسن عبد الله النفزي(ت642هـ/1244م) أنه كان لا يخالط الناس ولا يحدثهم إلا في أمور دينهم أو دنياهم⁽⁶⁾، وهي الخاصية التي أشار إليها ابن الخطيب في ترجمته للفقيه منصور بن علي الزواوي(ت770هـ/1369م) فقال عنه "منقبض عن الناس"⁽⁷⁾، نستنتج من ذلك أنه رغم قلة مخالطتهم مخافة على سمعتهم وحفاظا على هيبتهم إلا أنهم عاشوا هموم الناس وواقعهم المزري فحاولوا مواساتهم

(1) المصدر نفسه، ص83.

(2) المصدر نفسه، ص169-170.

(3) عنوان الدراية، ص216.

(4) المصدر نفسه، ص108.

(5) المصدر نفسه، ص142.

(6) عنوان الدراية، ص177.

(7) الإحاطة في أخبار غرناطة، تح: محمد عبد الله عنان، الشركة الوطنية المصرية للطباعة والنشر، ط1، القاهرة، 1973، ج3، ص124.

وإيجاد حلولاً لمشاكلهم، ورفع المعاناة عنهم أو التقليل من حدتها، وهو اعتزال إيجابي وفق بين سمعة الفقيه وواجباته تجاه مجتمعه.

4/ الزهد في الدنيا:

قدمت لنا كتب الطبقات الفقيه في أبهى الصور الأخلاقية والدينية، فوشحته بصفات دالة على زهده في الدنيا وتطبيقها فهو الذي أدرك معنى فناء الدنيا وزوالها⁽¹⁾، وتكرر عند الغبريني مدلولات "المتعبد، الزاهد، باغض الدنيا" عند تسعة عشر زاهدا (19) جاء على سيرتهم وأطنب في الحديث عن زهدهم وتطبيقهم للدنيا بخطاب المعجب والمقدر لتلك الخصلة الحميدة فيهم، أسهب في الحديث عن زهد أبي مدين شعيب وعبد الحق الإشبيلي وأبي يحيى زكريا الزواوي وهم الذين نظروا لتلك الخصلة خلال القرن 6/12م، فجل جلساتهم وحلقاتهم دعوة للتفرغ للآخرة والترهيب من النار والتذكير بأهوال يوم القيامة، وتجسيدها في سلوكياتهم وأخلاقهم فهم المتقشفون القانعون بالتقليل من المعاش فكانوا بحق ركيزة زهاد القرن 7/13م بيجاية، إضافة للحركية التي أثارها الزهاد الأندلسيين المستقرين بالمدينة فأضفوا على الحركة الزهدية طابعا فلسفيا وتعبديا خالصا مع أبو الحسن الششتيري (ت668/1270م) الذي كان له مجلسا خاصا يعلم طلبتها الزهد في دروسه ويفقههم في معانيه⁽²⁾.

قرنوا العمل التعبدى بالسلوك الأخلاقي في رمزية على ارتباطهما ببعضهما، أتى الغبريني على تلك الصفات في تراجمه بدقة فيصف قيام الزاهد لليل والإطالة في صلاته والاستزاق من عمل يده والاقتصر على التقليل من الأكل والشراب ومن اللباس، وهو شعار المتصوفة خصوصا لتقليلهم من الدنيا، فقد وصف الفقيه الصوفي ابن أساطير (ت بعد 670/1271) أنه كان متقللا منها ولا يرغب في ملذاتها ولا شهواتها منقطع للعبادة وتحصيل أعمال الآخرة⁽³⁾، وهي الصفة التي لازمت عبد الحق الإشبيلي الذي اقتصر على ما يسد رمقه ويكفيه للعيش وصفه الغبريني بالقول: "متقللا في الدنيا مقتصرًا على الكافي منها"⁽⁴⁾، وبذلك يصفو القلب من كدر

(1) الزهد من مصدر زهد في الشيء وهو القانع بالتقليل، جمع زهاد و زهود، أنظر: محمد بن مالك الجبائي: إكمال الإعلام بتبليغ الكلام، تح: سعد بن حمدان الغامدي، مكتبة المدني للطباعة والنشر، ط1، جدة، 1، 1984، ص284.

و اصطلاحا عرف الجنيد الزهد بأنه "خلو القلب مما خلعت منه اليد"، المقصود منه أن لا يفكر في متاع الدنيا عقليا وواقعا، وقد تفسر بمعنى التعبد فيقال فلان يتزهد أي يتعبد، العودة إلى: ابن تيمية: الزهد والورع والعبادة، تح: حماد سلامة، شركة شهاب، الجزائر، ص29.

(2) عنوان الدراية، ص210.

(3) عنوان الدراية، ص199.

(4) المصدر نفسه، ص73.

الدنيا ومنغصاتها ويستريح من ضيقها⁽¹⁾، وذهب هذا الاتجاه إلى تحقير الدنيا في قلبه وتصغيرها لكي لا تتمكن منه⁽²⁾، جعلوها في أيديهم لا في قلوبهم فانصاعت لتوجيههم.

إن زهدهم وورعهم وتطليقهم للدنيا وملذاتها بالرغم من مقدرتهم العلمية ومكانتهم الاجتماعية بين الناس جعلهم يحصلون شرط الجاه من منظور خلدوني لتوفرهم على معيار العلم، فصنفوا ضمن تراتبية اجتماعية مرموقة، إلا أن ذلك لم يجعلهم يغتروا بالدنيا وشهواتها فقد كان الفقيه عمر بن محسن الوجهاني (ت 690هـ/1291م) بعيدا عن الدنيا وبهرجها على رواية الغبريني "لم يتمسك بشيء من الدنيا لا بمال ولا بجاه"⁽³⁾، وتولى عبد الحق الغبريني (ت 713هـ/13م) قضاء بجاية و بالرغم مما تدره عليه الوظيفة من مرتب محترم وسلطة وجاه إلا أنه اعتزل الدنيا وعرف بالكفاف والرضا بالقليل⁽⁴⁾، استصغروا الدنيا في قلوبهم ولم تغريهم بمادياتها حتى وهم أغنياء طلقوها وأقبلوا على الباقيات الصالحات من أعمال البر والإحسان فهذا قاسم بن محمد القرطبي (ت 662هـ/1264م) خرج مهاجرا من وطنه وترك كل ماله وأملاكه لأجل دينه وعقيدته "مقبلا على العبادة بعد أن ترك مالا وعقارا"⁽⁵⁾، وهي إشارة رمزية لوهن الدنيا في قلوبهم وكبر الآخرة في نظرهم وواقعهم.

البعض جمع بين سلوكات تعبدية وأخلاقية سامية فحازها وازدان بفكرة الصلاح والقدوة، فقد وشح الغبريني الفقيه عبيد الله بن يحيى الأزدي (ت 691هـ/1292م) بصفات ملاح جمعت بين التفقه والصلاح والولاية والزهد والتعبد، كما تحدث عن تواضعه وحيائه⁽⁶⁾، تجسد كل ذلك في أعماله الصالحة وتواصله مع الناس، وهي صفات قليلا ما تجتمع في فقيه أو شيخ، تنم عن فهم الأبعاد الأخلاقية والاجتماعية للشريعة، نافح عن الفقراء ووقف في وجه أذعياء التصوف الممارسين لشطحات ما أنزل الله بها من سلطان.

ترجموا أخلاقهم في واقعهم وأسبغوا بالخير على مجتمعهم فأنعما على الناس بما أنعم الله عليهم لقربهم منه بحسب المصادر التي ترجمت لهم، فقد عرف عن أبي الفضل بن محمد القرطبي (ت 662هـ/1264م) أنه الزاهد باغض الدنيا يتصدق على فقراء بجاية مما أفاض عليه الله من الخير والنعم الكثيرة⁽⁷⁾، هذا الربط بين التقوى والخير والبركة والعطاء يستشف منه حب الله لأولياته المتقين وإسباغه بالنعم والخير عليهم فلم يجسوه في أيديهم بل أوصلوه لمستحقه من الفقراء والمساكين والمحتاجين.

(1) يمكن التفصيل في الموضوع بالعودة إلى : فاطمة الزهراء جدو: السلطة والمتصوفة في الأندلس عهد المرابطين والموحدين 479-635هـ/1086-1238م، رسالة ماجستير، جامعة قسنطينة، 2007-2008، ص 12.

(2) والزهد في الشيء فسر عند البعض الآخر بالامتناع عنه وتحقيره وعدم الاكتراث به، أنظر: محمد الجوير: جهود علماء السلف في القرن السادس الهجري في الرد على الصوفية، ط 1، مكتبة الرشد، 1424هـ/2003، ص 444.

(3) عنوان الدراية، ص 180

(4) المصدر نفسه، ص 268.

(5) المصدر نفسه، ص 161.

(6) قال عنه الغبريني: "الفقيه الولي الصالح العابد الزاهد، له علم ووقار وعمل مرضي مختار"، ينظر: عنوان الدراية، ص 121.

(7) المصدر نفسه، ص 161.

بلغ الزهد عند بعضهم مبلغا كبيرا وسمة بارزة حتى أصبح ديدنهم في الحياة، فقد جاء في ترجمة الفقيه أبو الحسن عميد الله النفري (1244/هـ642م) أنه "بلغ في الزهد والورع مبلغا فاضلا"⁽¹⁾، لم ينحسر كخلق بين الفقهاء فقط بل ورغبوا فيه وروجوا له من خلال التدريس والنمذجة من الرعيل الأول وإعطائهم للناس مرجعية يحتذى بها، والبعض الآخر حُبب فيه من خلال كتابة الشعر والنثر في الموضوع مرهبا من الدنيا وأهوائها ومذكرا بالآخرة وأهوالها وقد كتب ابن الغمّاز (ت1294/هـ693م) وهو قاضي بجاية وخطيب جامعها الأعظم يحذر الناس من المعاصي ويذكرهم بالموت قائلًا:

هو الموت فأحذر أن يجيئك بغتة **** وأنت على سوء من الفعل عاكف
وياك أن تمضي من الدهر ساعة **** ولا لحظة وإلا قلبك واجف
وبادر بأعمال تسرك أن ترى **** إذا نشرت يوم الحساب الصحائف⁽²⁾

5/ الإقبال على العبادات:

منهم من نظم وقته بدقة ووضع نظاما دقيقا لحياته، جمع بين دنياه وآخرته، فيؤثر عن عبد الحق الإشبيلي أنه قسم ليله إلى ثلاثة أقسام، ثلث للقراءة والتفقه والزيادة في تعلم علوم الشريعة، وثلث للتعبد ومناجاة ربه والتقرب إليه، وأعطى الراحة لنفسه بالنوم في الثلث الأخير من الليل⁽³⁾، مما ينم عن المستوى الذي وصله الفقهاء البجائيين في إدارة الوقت والجمع بين الدين والدنيا، حرصوا على أداء العبادات بالشكل المطلوب إقتداءً بالسلف الصالح في الخشوع والخضوع لله، فيروى أن الفقيه أبو الحسن النفري عندما يقف في صلاته وأمام ربه لا يعرف من يمينه أو شماله⁽⁴⁾، دلالة على الخشوع في صلاته وخوفه من ربه وأداء العبادة على وجهها الصحيح وإعطائها حقها المطلوب.

دأبوا على قيام الليل تقربا إلى الله ودفعاً للرياء وتطهيرا للقلوب من وسخ الدنيا، يقرؤون القرآن ويتدبرون آيه حفاظا على نظامهم التعبدي دون انقطاع، فقد ذكر أن أبو عبد الله محمد بن إبراهيم كان يقرأ أوراك الليل برابطة الزيات مع الفقيه أبي علي الملياني ويجرسان على ذلك تأسيا بالسلف وطلباً للأجر، وقد تجلت مظاهر خشيتهم في عباداتهم بالبكاء وإطالة الصلاة والذكر، حيث اشتهر الفقيه محمد بن يحيى الباهلي بأنه كان غزير الدمع كثير الذكر رقيق القلب⁽⁵⁾.

(1) المصدر نفسه، ص177.

(2) المصدر نفسه، ص131.

(3) عنوان الدراية، ص73.

(4) المصدر نفسه، ص177.

(5) أنس الفقير، ص94.

التزموا المساجد وعرفوا بإقبالهم على العبادة وسعيهم للخير والدعوة إليه، فهذا هلال بن يونس الغبريني(ق7هـ/13م) لا يُرى في داره إلا في الغداء والعشاء لعكوفه بالمسجد الأعظم ليلاً ونهاراً متعبداً وقارئاً للقرآن مستمعاً لدروس العلم⁽¹⁾، وكان أبي زكريا المرجاني يقضي جل وقته في مسجده بحومة اللؤلؤة يلتقي مع الصلحاء والأخيار من البجائيين⁽²⁾، انقطعوا للعبادة بالمساجد والإقبال على الطاعات فكانوا الأسوة لغيرهم تطابقت أقوالهم وتمثلاتهم العقديّة بأفعال السلف فعاشوها في واقعهم.

6/ ظاهرة الصلاح:

الصلاح أو مدلول "ظاهر الصلاح" تكرر في الكتابات المنقبيّة والتراجميّة، وقد جاء مراراً في عنوان الدراية خاصة لدى متصوفة بجاية، عرفه ابن قنفذ على أنه "من اجتهد بطاعة الله ورزق الخوف منه وبجث عن أمر كسبه الحلال وترك الدنيا"⁽³⁾، قرّن الصلاح دوماً في القرآن الكريم بالتوبة والإنابة إلى الله وفعل الخيرات ومحبة أهلهم، وأعتقد أن الترويج لهذا المدلول هدفه تقوية الحضور الاجتماعي لتلك الفئة فقدم الصلاح والالتزام كمؤشر على الإيجابية المطلوبة أمام الأوساط الضعيفة، محاولين البرهنة على شرعية ذلك الحضور من منطلق تقديم الأصلح والأفيد للمجتمع البجائي، حتى أنني أرى أن تلك النصوص المضمرة تحوي في ثناياها ذلك الصراع القائم بين المتصوفة والفقهاء، وإن كان خفياً للعيان فإننا نستشف من ثناياه سعي كل طرف للظهور على مستوى المشهد الاجتماعي والثقافي البجائي بقوة⁽⁴⁾.

ارتبط الصلاح بأخلاق أخرى تجلت عند الفقهاء كالصدقة والإيثار والتقوى، فأبو محمد عبد الواحد بن حجاج⁽⁵⁾ كان "من الصلحاء الفضلاء"⁽⁶⁾، وقد أثنى الغبريني على والده عبد الله في سمو أخلاقه وأمره بالمعروف وإصلاحه بين الناس حتى أنه عدّه من المعدودين في سبيل الخير والجود، والحكمة والموعظة الحسنة في دعوة الناس⁽⁷⁾. قرنت بشدة بالخوف من الله ونزاهة النفس وترفعها عن الطمع في أمور الدنيا، ولا يتأتى ذلك إلا

(1) المصدر نفسه، ص 170.

(2) المصدر نفسه، ص 165.

(3) أنس الفقير، ص 45.

(4) كتب الباحث التونسي محمد حسن في هذا الموضوع وذهب إلى أن الصلاح ارتبط بنمطين من المتصوفة وهما الاتجاه السني والاتجاه الشعبي وكذلك عند الفقهاء المالكية، ورأى أن هذه العناصر متداخلة فيما بينها ولها بعض القواسم المشتركة أنظره في: الفقراء والزوايا بوسط إفريقية من أواسط القرن السادس الهجري إلى نهاية القرن الثامن الهجري، ص 313-314، وكذلك في: المدينة والبادية في العهد الحفصي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 1999، ج2، ص 715.

(5) هو ابن الفقيه عبد الله بن حجاج بن يوسف(ت بعد 640هـ/1242م) ولي الخطابة بجامع القصبّة ببجاية لمدة ثلاثين سنة إلى أن توفي كما تولى قضاء المدينة، أنظر ترجمته ضمن ترجمه والده في: عنوان الدراية، ص 215.

(6) المصدر نفسه، ص 215.

(7) المصدر نفسه، ص 215.

لصاحب العلم الواسع على شاكلة الفقيه أحمد بن عجلان (ت675هـ/1268م) الذي مدحت صفاته الخلقية والأدبية فقبل عنه "متنزه عن الميل والطمع له علم وصلاح مكتمل"⁽¹⁾، جامعا بين التقوى والصلاح مما يوحي بأن نجاحهم الشخصي ربط بمدى فاعليتهم الاجتماعية.

7/ المزحة والدعابة:

في دين الإسلام فسحة وأمل وفرح وتسلية شرعية، وقد أدرك فقهاء بجاية أيما إدراك تلك المعاني التي يتسم بها الفقهاء والمدرسين لكي يطبعوا على دروسهم وحلقهم الحلاوة ويدفعون عن طلبتهم الملل والسأم وينبهونهم عبر قصص يروونها لهم أو نكت تبعدهم عن الفتور، فالفقيه عبد الحق الأنصاري (ت675هـ/1285م) كانت تطبعه دعابة في كلامه يستحسنها الطلبة وتروق لهم، كما روي عنه تميزه الأخلاقي وعمله الصالح لوجه الله⁽²⁾، لازمتهم في أسرهم ومع أهلهم يعلمونهم أخلاق الإسلام في أسلوب القدوة بوجوه باشة وقلوب محبة فقد ذكر أن عبد الحق الإشبيلي كان يعطي الوصيصة مالا كثيرا لقضاء حوائج المنزل فلما تتعجب من كثرتة يقول لها بأسلوب الدعابة والمزح والنكتة والطرافة "لا أجمع على أهل المنزل ثلاث شينات، شيخ وإشبيلي وشحيح بل يكفي شينتان"⁽³⁾، من خفة روحه وبشاشته حتى مع خدمه، فلم يتميز عنهم ولم يحس بالكبر بل تواضع للناس فأحبوه ورفعوه فوق رؤوسهم ومكنوه من قلوبهم، لأنه فتح لهم صدره وخدمهم بعقله وأخلاقه.

إن جمعهم بين الأخلاق والعلم ترك أنفسهم هادئة طيبة شديدة وحازمة في مواقف الجد والحزم ومرحة مستعذبة لطيفة فكاهية في مواقف الهزل والمرح، هذه الخصال اجتمعت في الفقيه أبو الحجاج يوسف الجزائري (ت13هـ/13م) الذي استحسّن الغبريني مجالسه العلمية وأثنى على خصاله الخلقية وروحه الفكاهية فقال عنه: "كانت له فكاهة مستملحة رحمه الله"⁽⁴⁾، نفهم من ذلك أن فكاهة ومزاح العلماء يختلف عن الغير حتى أن الشيخ استعذبه في نفسه وراقت له روحه لأنها في مضامينها فكرا تربويا وبعدا معرفيا وخلقيا ومن ثمة فهو ما شرعية.

8/ الحلم الوقار والحياء السمة البارزة:

وهي الصفة التي لازمتهم في حياتهم الأسرية والعلمية، من خلال مجالس العلم التي كانت تعقد بالمساجد والزوايا وبعض منازل الفقهاء، وصلتنا أوصافهم عن طريق طلبتهم ومريديهم ومن فئات المجتمع المختلفة، وصفوا

(1) المصدر نفسه، ص 116.

(2) عنوان الدراية، ص 86.

(3) المصدر نفسه، ص 74-75.

(4) المصدر نفسه، ص 103.

بالحياء الذي اجتمع مع الحلم والصبر، وهي ثلاثية كثيرا ما لازمتهم مع طلبتهم ومع عامة البجائين⁽¹⁾، لم يقابلوا الحساد إلا بالبشاشة والدعاء لهم بالتوبة والمغفرة ولم يواجهوا البغضاء إلا بالخير، عرفوا بأنهم أهل النهي والعقول المتفهمة لزلات وأخطاء الناس فمثلوا بحق أخلاق القرآن في واقعهم ولم يواجهوا خصومهم ومعارضهم إلا بالحسنى، فقد وصف الفقيه ابن محرز (ت655هـ/1258م) أنه كان أحسن البجائين خلقا، يتواضع لطلبته ويلين لهم بالكلام رؤوفا بهم ومتأدبا معهم، وهي السمة التي كانت سببا في حب طلبته وتبجيله واحترامه والإشادة بتواضعه⁽²⁾، يفهم من ذلك فهمهم للطرق البيداغوجية والتربوية التي تحب الطلبة في درس العلم فحب الدراسة من حب الشيخ.

أحيانا جاءت بألفاظ متنوعة ولكن تصب في معنى واحد يقوم على طيبة السريرة وصفاء المعدن، فقد جمع الفقيه أحمد بن خالد المالقي (ت660هـ/1262م) بين حسن الخلق وطيب السريرة مما ينم عن سلامة الجبلة وتطبعها بأخلاق سامية كرسها في حياته اليومية مع طلبته وفي منزله مع مجتمعه⁽³⁾، وعرف عن الفقيه عبد الوهاب بن يوسف (ت بعد 680هـ/1281م) العفاف والنزاهة وحسن الأخلاق وهي ثلاثية ما اجتمعت في شيخ إلا وزادته علما واحتراما وحبا بين الناس⁽⁴⁾.

إن الوقار والحياء خلقان ما اجتمعا في شخص إلا وكان مهابا محترما محبوبا مقدما بين الناس حتى وإن لم يكن فقيها أو عالما، فقد روي عن السلطان الحفصي ابن اللحياني اتصافه بالصبر والحياء مما جلب له المحبة بين "الخاصة والعامة" على رأي ابن قنفذ⁽⁵⁾، يتضح خلق الوقار في مواضع كثيرة من تراجم الفقهاء، وتكفينا شهادة ابن قنفذ القسنطيني في وصف الوفد البجائي الذي زار أبي زكريا والي قسنطينة بعد شفائه من المرض يتقدمهم قاضي بجاية أبي العباس الغبريني، فقد أعجب بالسمت والأدب والوقار الذي تميز به ذلك الوفد رفقة قاضيهم⁽⁶⁾، مما ينم عن الحس الأدبي والأخلاقي العالي لتلك النخب وتأثير التكوين التعليمي والتربوي في منظومتهم الأخلاقية، وصحة المؤسسة التعليمية البجائية منهجا وتكوينا.

صور كثيرة وصلتنا توضح التزامهم بسير أخلاق الأولين وتأديهم بين الناس في مشيهم وعند قضاء حوائجهم وفي التجمعات السكانية (الأسواق والأحياء)، كرسوا أدب الطريق وأعطوا حقه كما أوصى الشارع الحكيم، فكما يوضحه الجدول السابق عن الفقيه أبو الحسن بن فتوح النفزي (ت642هـ/1244م) أنه كان يمشي بين

(1) وصف عبد الله الباجي القلشاني (ت765هـ/1363م) والد الإمام محمد القلشاني بأنه كان "وقورا حلما صابرا على أخلاق الناس وحاسديه"، ينظر في ذلك: التنبكي: نيل الإبتهاج بتطريز الديباج، تح: عبد الله الهزيمية، منشورات كلية الدعوة، ط1، طرابلس، 1989، ص222.

(2) عنوان الدراية، ص242.

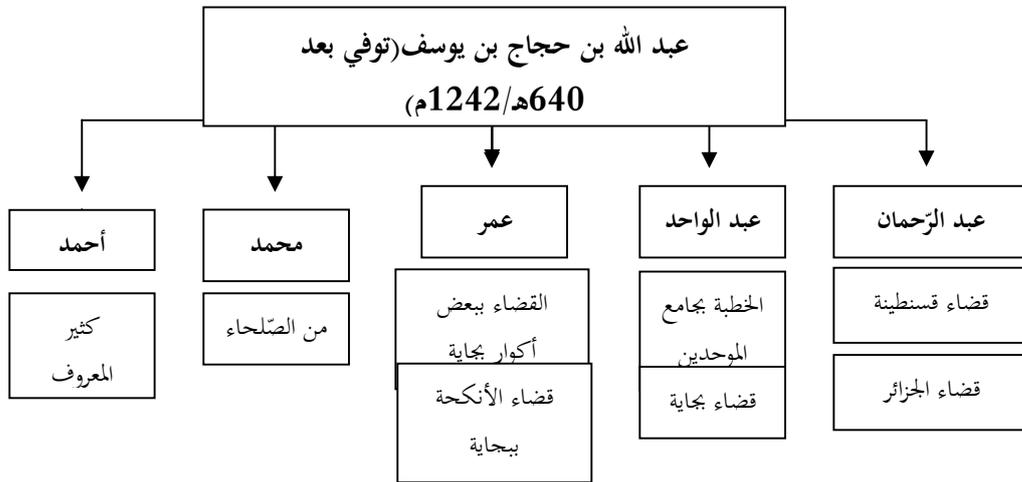
(3) المصدر نفسه، ص100.

(4) المصدر نفسه، ص204.

(5) الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، ص161.

(6) المصدر نفسه، ص149.

الناس لا يلتفت عن يمينه ولا شماله حياءً وأدبا أن تقع عينيه على معصية أو أن يقل أدبه مع الناس⁽¹⁾، لا يعلم ما يحدث في الطريق مخافة الفتنة وتجنباً للشبهات وتكريساً لأخلاق العلماء. الفقهاء والتربية الأخلاقية في بيوتهم : لأجل معرفة مدى تجسيد فن التربية الأخلاقية والأدبية التي تحملها النخب العاملة كأفكار في بيوتها ومع عائلاتها وأبنائها، أخذت نموذجاً لأسرة الفقيه البجائي عبد الله بن حجاج بن يوسف (توفي بعد 1242م/640هـ)، ولإبراز دور والدهم وتأثيره في سيرتهم وعلاقتهم العائلية، ومدى بلورة الفكر الخلقى للأسر الفقهية ببجاية ارتأيت وضع المخطط التالي للإجابة على الإشكالية :



التعليق والتحليل:

يتضح من خلال المخطط البياني لعائلة الفقيه عبد الله بن حجاج أنها عائلة جسدت فن التربية العلمية والخلقية في أبنائها فسار الكثير على درب والدهم علما وفضلا وخلقا، ونجاحا وظيفيا فأغلبهم ولي القضاء بتأثير منه، وكان والدهم قد استقضى بالجزائر ثم ببجاية، عرف عنه التزامه بوظيفته وحسن سيرته في عمله وإحقيقه للحق ونصرة المظلومين فشاعت أخباره وعرّف الناس قيمته، سار أولاده على سيرته ومنهجه العلمي والأدبي الأخلاقي، وكما يبينه المخطط أنه ترك خمسة من الأولاد، أكبرهم الفقيه عبد الرحمن الذي ولي قضاء قسنطينة ثم الجزائر، وتولى عبد الواحد قضاء بجاية فحسنت سيرته وكان من أهل الفضل عرف بصلاح أمور دينه ودنياه مخلصا في وظيفته، يأخذ بالحق والعدل ولا يسمع لأوامر سلطة أو تدخل ذوي الجاه والمال، اشتهر بتعاملاته الحسنة مع الناس على حد تعبير الغبريني، عين خطيبا بجامع الموحدين ببجاية حتى مات ماينيف عن ثلاثين سنة يصلح ذات

(1) عنوان الدراية، ص 177.

البين ويفتي في الناس ويسمع شكواهم وهمومهم⁽¹⁾، واستقضي أخوه عمر ببعض أكوار بجاية ثم اختص بقضاء الأنكحة زمن تولي أخية عبد الواحد قضاء المدينة، أما الفقيهان أحمد ومحمد فقد ورثا عن والدهما الجود والكرم والإنفاق على الضعفاء وحسن السيرة معهم، فقد شهد لابنه أحمد ويبدو أنه ثالث إخوته بالمعروف والإحسان للضعفاء والبر بالمحتاجين على سيرة والده⁽²⁾، وهو شأن محمد رغم قلة مخالطته للناس وحبه للإعتزال بنفسه خشية الوقوع في المزلات إلا أنه كان كثير الصدقة والإنفاق على الفقراء، وجملة ما لخصه الغبريني عن هذا البيت قوله "ويبتهم بالجملة بيت كريم وأحوالهم جارية على المنهج القويم والسرطام المستقيم"⁽³⁾.

استنتج من التعليق نجاح المنهج التربوي والسيرة الحسنة لوالدهم، وهي التربية بالإقتداء وهو الأسلوب الذي نصح معظم الفقهاء البجائيين الذين وصلتنا أخبارهم عبر المصادر على قلتها، وقد نجح أغلبهم في رسم الهوية العلمية والتربوية لأبنائهم مما ينم عن ترسخ مفهوم الأسوة واعتبارها الطريقة المثلى في تأديب الأبناء وتعليمهم، خاصة وأن الكثير من الأبناء سمعوا ورووا عن آباءهم فقد أقرأ الفقيه أو الخطاب ابن دحية إبنه أبو علي علم الحديث وعلوم اللغو وغيرها⁽⁴⁾، كانوا مدرسة في تعليم الحياء والأدب والستر والعفاف، فقد دعا الفقيه علي بن أبي نصر ربه تعالى أن لا يرى أحدا من الناس بناته المتحجبات الطاهرات مخافة الفتنة ودرءا للمعصية، وقد استجيب لدعائه فتوفين قبل وفاته⁽⁵⁾، فهل كان ذلك حرصا عليهن من نوائب الدهر؟ أم حفاظا على حرمة الأسرة الصوفية الملتزمة والمهابة في أعين الناس ومن ورائها الحفاظ على المكانة الاجتماعية للشيخ؟ أم زهدا في الحياة الزوجية؟

النتيجة:

من خلال كل ما سبق يتبين أن مشيخة العلم ببجاية خلال العهد الحفصي، جسدت مفاهيمها الإعتقادية في سلوكياتها الأخلاقية، ولم تتناقض في واقعها مع خطابها نحو المجتمع، فكانت تدعو إلى الخير والرحمة والإخاء والتزاور والكرم... الخ، وتحث على مكارم الأخلاق بمرجعيات نصية تراثية، وبمنهج تاريخية متأصلة، فتمثلتها في واقعها وفعلتها في مجتمعا، فلقيت الحظوة والمكانة الاجتماعية من البجائيين، وحصلت الاحترام والتقدير، لأنها مثلت النموذج الأخلاقي الواقعي، فتمكنت من قلوب العامة الذين ساروا على نهجها واهتدوا بهديها واستقاموا على طريقتهما

(1) عنوان الدراية، ص 246.

(2) عرف عن والدهم الفقيه عبد الله بن حجاج الإحسان إلى الناس فكان يتصدق بكل راتبه من وظيفة القضاء، ولا يأكل إلا مما يصله من محصول عقاره بالجزائر، ينظر: عنوان الدراية، ص 246.

(3) المصدر نفسه، ص 246.

(4) المصدر نفسه، ص 228-229.

(5) المصدر نفسه، ص 142.